زاد الداعية

الركن الركين بدونه لا نستقيم.. (1)

الثلاثاء 29 نوفمبر 2022 10:56 ص

بقلم: جمعة أمين عبد العزيز

إن من أخطر ما يؤثِّر في بناء شخصية المسلم، ويقلِّل أو يزيد من فاعليته وحركته من أجل بناء دولته، وتوطيد أركان دعوته درجة وضوح فكرته، وضوحًا يحدده الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق، والعمل المتواصل، والوعي الكامل.

ولا يكفي هذا الوضوح فحسب، بل لا بد أن يتبع ذلك إخلاص لمنهجه، وإخلاص لأفراد جماعته، وإخلاص وثقة في قيادته، وبذل للجهد والوسع، يرجو به رضا ربه ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: من الآية 110)، ذلك لأن الإخلاص هو لبّ العبادات وروحها، فبدونه يصبح العمل كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه.ذلك لأن المخلصين هم الذين: إذا قالوا صدقوا، وإذا صدقوا عملوا.

وإذا عملوا أحسنوا، وإذا أحسنوا أخلصوا دينهم لله لا يريدون جزاءً ولا شكورًا. فإسلامنا ليس أحكامًا وتعاليم وأوامر جامدة، إنه يتجسد في جماعة لها منهج وجنود وقيادة ذات قلب حي، حبب الله إليهم الإيمان، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فأفردوا الحق سبحانه بالقصد والطاعة، وتبرأوا من كل ما دون الله، فقصدوا وجهه سبحانه بقولهم وعملهم وجهادهم، وابتغوا مرضاة ربهم وحسن مثوبته.

<u>الإخلاص لبّ الأعمال</u>

والإخلاص بهذا المعنى هو لبّ العمل، وجوهر العبادة، وبدون الإخلاص تصبح العقيدة قالبًا لا قلب لها، والعبادة حركات لا روح فيها، فصلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وزكاته لا تطهره ولا تزكيه، وصومه ليس له منه إلا الجوع والعطش، وحجه رفث وفسوق وجدال، وشريعته نظام لا حب فيه، وأوامر جافة لا مشاعر معها، وأخلاقه رياء وسمعة.

ولذلك فإن من دلائل إخلاص المؤمن صدقه في أقواله وأفعاله، لا همّ له إلا مرضاة ربه لا مرضاة الناس، بل قد يضطر أحيانًا إلى إغضاب الناس في سبيل مرضاة الله، لا يبالي بسخطهم إن رضي الرب سبحانه وتعالى، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ التمس رضاء الناس بسخط الله وَكَلَهُ الله إلى الناس» (1).

ومن ثمّ فهو يزن أعماله بميزان مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فما رجحت به كفة هذا الميزان قَبَله وارتضاه وإلا أعرض عنه وجفاه، وبذلك تستقيم مقاييس المسلم، وتتضح أمام عينه معالم الطريق الصحيح، والسبيل القويم.وأيسر الطريق إلى ذلك هو:

1- الإعراض عن طلب الشهرة.

2- وترك حظ النفس.

3- وترك الرغبة في المديح والثناء.

4- والمراقبة لله عزَّ وجلَّ.

5- والشعور الدائم بأن الله يراه ويعلم ما توسوس به نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)﴾ (سورة : ق).

وإذا صحت عقيدة المسلم بالإخلاص، وصدق عمله بالاتباع، وعرف المؤمن أن له ربًّا خالقًا ورازقًا يدبر الأمر وحده، وأنه لا معبود بحق سواه، استحضر عظمته في نفسه في كل وقت وحين، وفي كل حركة وسكنة، وفي كل قول وفعل فيخشاه في السر كما يخشاه في العلانية، ومَنْ علم أن الله يراه حيث كان، وأنه يطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته ابتعد عن كل ما يغضب الله، فأحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، ومَنْ فعل ذلك فقد استكمل الإيمان.وحين يخلص القلب من التعلق بغير الله يتحرر من كل القيود، وجميع الأوهام ويتحرر من الرغبة والرهبة لغير الله، فمَنْ ذا يرهب أو يرغب متى وجد الله؟ وحينئذٍ يرد كل شيء، وكل حدث وكل حركة إلى الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فإذا به ينحِّي الأسباب الظاهرة كلها، ويرد الأمر إلى مشيئته سبحانه فتنسكب في قلبه الطمأنينة فلا يتجه إلا إلى خالقه رغبًا ورهبًا.

وهذا ما يريده الإسلام من المسلم، وهو يسلك هذا الطريق في سرّائه وضرّائه، في نعمائه وبأسائه، ولا يتحقق ذلك إلا إذا تلقى من الله عقيدته وتصوره، وشعائره وشرائعه، وموازينه في آدابه، وتقاليده في سكناته وحركاته، همه الأكبر تمحيص مصدر التلقي، فله مصدره الذي يتلقى منه.

لا يلقي للناس بالاًّ ولا اعتبارًا إن هم حاولوا إثناءه عن الطريق المستقيم والمنهج القويم. ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)﴾ (الشورى).

وأفراد هذه الجماعة لا بد أن يخلصوا لمنهجها تطبيقًا ودعوةً يلتزمون بذلك، ولا يُلزمون ويقنعون ولا يُكرهون يسوقون الحجة ولا يعنّفون، يتحلى أفرادها بالصبر، ويتجملون بالحلم، ويتحملون الإيذاء، لا يبالون بالإغراء أو الإغواء، ولا الشهوات ولا الشبهات، فلا يستجيبون لما يفتتن به الناس عادة من متاع الدنيا ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)﴾ (سـبأ).

كما أن هذه الجماعة تواجه أهل الباطل بثبات وعزيمة لا تلين، موقنة بانتصارها حين تتمسك بثوابتها ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)﴾ (المجادلة)، ذلك لأن دعوتها شجرة طيبة ثابتة مثمرة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان- وإن خُيّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان؛ ولكنها متعالية على الشر والظلم والطغيان- يقول العاملون فيها للطغاة والظالمين ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طـه: من الآية 72)، وإن خُيّل إلى البعض أحيانًا أن الشر يزاحمها، إلا أنها مثمرة لا ينقطع ثمرها؛ لأن الخير الأصيل لا يموت ولا يذوي، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق، كما وأن الشر لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ثم سرعان ما ينزوي. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: من الآية 18).